النص الأدبي سيمـــــــاه و سيميـــــــــاؤه

الأستاذ: جاهمي محمد
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة 8 ماي 1945 قالمة

تشتمل هذه الدراسة على عنصرين رئيسيين هما:

1- النص الأدبي منظورا إليه من زاوية لغوية و اصطلاحية و وظائفه على ضوء المعرفة السيميائية.

2- سيمياء النص أو علاقة السيمياء بالنص الأدبي.

أولا: مفهوم النص

تواضع **اللغويون** على تعريف كلمة " نص" بأنها الرفع، و من ثم قالوا:" نص القول: أي رفعه و أسنده إلى صاحبه"[1] و هو المعنى الذي أشار إليه طرفة بن العبد في قوله: فنص الحديث إلى أهله فإن الوثيقة في نصه

و كذا امرؤ القيس في قوله:

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش اذا هي نصته و لا بمعطل

أما **النقاد** فلا يكادون يتفقون على تعريف اصطلاحي موحد لتحديد مدلول النص الأدبي. غير أن

" النص" هكذا من دون وصف " المتن من الكلام"، كما يعرف بأنه " الصيغة الأصلية لما ينتجه الأديب من شعر أو نثر"[2]

و النص الأدبي عند البعض هو " مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة"[3] وعند آخرين انه:" شكل للتفاعل الاجتماعي"[4] و ذلك تبعا للمقام الذي ورد فيه أو بالأحرى أنتج فيه.

و النص الأدبي باعتباره منظومة معرفية لا يتأسس فقط على معرفة بسيطة تستند إلى المجتمع أو الفرد و حسب، أو إلى الجانب النفسي لمنتجه و كفى، و لكنه يتأسس على ذلك كله.

و من ثم فإن منتج" مبدع" النص الأدبي لا يمكنه أن يصوغ نصا يقف فيه أو معه القارئ على جانب من الأهمية. بل لابد لمبدع النص الأدبي من جملة من المعارف النفسية، و الفلسفية

و التاريخية و الأدبية و الاجتماعية و السياسية حتى يستطيع تنوير القارئ. و على هذا الأساس فإن القارئ في تحليله للنص الأدبي لابد أن يكون مزودا بروافد ثرة من هذه المعارف جميعا حتى ينجح في الكشف عن رموز النص الأدبي، ودلالاته و حتى خلفياته و مرجعياته المختلفة.

بعد هذه المقدمة القصيرة حول مفهوم النص منظورا إليه من الزاوية اللغوية و الاصطلاحية

– و قد رأينا ألا نفيض في التفصيل لئلا يفلت منا زمام الوقت– نتعرض الآن إلى العنصر الثاني

و هو بيت القصيد في هذه المداخلة.

<u>ثانيا:</u> سيمياء النص الأدبي

قديما كان جرير الشاعر الأموي الذي حمل راية الشعر في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، و شكها في أعلى القمم يقول:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل.

ترى ماذا كان يريد من وراء توظيفه كلمة " ميسم"؟

الواقع أن جريرا يريد أن ينهي إلى أسماع مخاطبيه أنه يسم الفرزدق – مهجوه– بسمة لا تمحي

و لا يعفو أثرها، حتى لكأن تلك السمة سبة و عار تلحق بشرف الفرزدق. و كذلك تقول العرب للرجل يسب الرجل سبا قبيحا: قد وسمه بميسم سوء، يريدون: ألصق به عارا لا يفارقه.

و من ثم اقترن الوسم بالهجاء فاستعير له، و لعل ذلك ما أشار إليه قوله تعالى:" سنسمه على الخرطوم" سورة القلم :16

و يقول المعجميون: توسم الشيء إذا تفرسه و تعرفه و تطلب سمته و علامته، و إلى هذا المعنى أشار زهير بن أبى سلمى المزني:

و فيهن ملهى للطيف و منظر أنيق لعين الناظر المتوسم

و على هذا فإن " توسم" النص الأدبي يقضي بمحاولة الوقوف على أسراره و مكنوناته للتعرف عليها، و لا يتأتى ذلك للقارئ ما لم يقم معه علاقة حميمية تفضي به إلى كشف بعض خباياه.

و من هنا فسيمياء النص علامة تقف وراء المؤدى المباشر له و هي ذات مدلول اجتماعي أو نفسي أو تاريخي أو حضاري أو ثقافي أو هي تلك جميعا أو بعض منها، و على قدر ارتباط القارئ بالنص تفصح العلامة عن معانيها و دلالاتها و قد لا تفصح على الرغم من ذلك حتى و إن أدام القارئ قرع بابها لأن هناك" ضربا من المعنى كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، و كالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له"[5]

والنص الأدبي– أي نص أدبي– حين نقرأه قراءة سيميائية نجده مؤلفا من علامات عديدة[6] و كل علامة لها علاقة بما سبقها و ما يلحقها من العلامات. فالأولى تستدعي الثانية و الثانية تنبئ عن الأولى نوعا و تنوعا، و هكذا إلى الحد"ن" تماما كالمتتالية الحسابية. حدها "ح" مرتبط أساسا بالحد الأول"ح$_1$" و لا ينفصل بطبيعة الحال عما بين ذلك عن حدود المتتالية، و يبقى الأساس عاملا مشتركا بين الجميع كما تواضع على ذلك الرياضيون.

إن النص الأدبي منظورا إليه على أنه بنية لسانية لا يفصح لقارئه إلا عن مستويات محدودة جدا من القراءة لا تتجاوز حدود الصوت و الصيغة و التركيب...على اعتبار أن التحليل اللساني يعتمد الجملة أساسا للدراسة في ذاتها أو في علاقاتها بنظيراتها من الجمل في أحسن الحالات.

و لذلك اندفع الباحثون ساعين للكشف عن معان أخر للنص خارج القراءة اللسانية. فكانت القراءة السيميائية هي البديل.

إن التحليل السيميائي للنص الأدبي لا يتبنى الجملة بل يقوم على تتبع وضع أساسي للمعنى

و انتقاله عبر متغيرات إلى المعنى النهائي، كما أن المعنى هنا غير ثابت خلاف لما هو موجود لدى اللسانيين.

و على هذا الأساس فإن سيمياء النص الأدبي تتجلى في تجربتين:

أولاهما: التجربة الإبداعية: و يرتبط وجودها بالمبدع – متكلم كان أو كاتب– و هذا يتصل بالكفاءات التبليغية و التواصلية و الخطابية للمبدع.

ثانيتهما: التجربة القرائية: و يسميها البعض(التعقيبية)[7] أو النقدية و يتصل وجودها بالمخاطب

وكفاءاته التأويلية. و لا نرى هنا أن التجربتين تتساويان، فعلى قدر اتساع طاقات المبدع ترتقي قيمة النص و العكس كذلك.

كما أن كفاءة القارئ (المتلقي) في فتح مغاليق النص الأدبي و قدراته على فك رموزه يسهمان في إخراج مخبوء النص الأدبي إلى النور، و من ثم تحويله إلى متعة قرائية. و كما يحتاج المبدع الأول(منتج النص الأدبي) إلى معاناة تبدأ مع المثير فالتجربة الشعورية فالترجمة الفكرية، كذلك يحتاج المبدع الثاني(متلقي النص الأدبي) إلى معاناة ربما أكثر على الرغم من أنه لا يظهر تماما كالمخرج يقف خلف الأضواء و لكن إليه يرجع فضل نجاح العمل المسرحي أو السينمائي.

إن السمة الأهم في النص الأدبي هي الغموض. و لا نقول إن الغموض ظاهرة في النص الأدبي لأنه يخرج عن قواعد الترميز التي يتميز بها النص العلمي و هذا معناه أن النص الأدبي يعدل دائما عما تواضع عليه العامة في مخاطباتهم، أي أنه يتخذ من الانزياح سبيلا إلى المتلقي فيسعى هذا إلى قرع أبوابه مرة بعد مرة للكشف عن خباياه و خفاياه، و قلما يفلح لأن أية قراءة للنص الأدبي تؤدي إلى إلغاء نفسها، و يحتاج إلى قراءة أخرى ينتج معها تغير آخر في نظام الترميز، و هذا التغير يتطلب بالضرورة قراءة أخرى و هكذا.

و لعل سمة الغموض هذه هي التي تجعل النص قادرا على الإشعاع، و من ثم تولد لدى المتلقي رغبة لا تنتهي للولوج إلى خفاياه بغية تحديد هويته و إبداعيته. و قد فطن الجاحظ (ت255هـ) إلى هذه الحقيقة حين صرح:" إن الشيء من غير معدنه أغرب، و كلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، و كلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، و كلما كان أطرف كان أعجب، و كلما كان أعجب كان أبدع، و إنما ذلك كنوادر كلام الصبيان و ملح المجانين. فإن ضحك السامعين من ذلك أشد

و تعجبهم به أكثر"[8].

و نود في هذا المقام أن نلاحظ كيف ربط الجاحظ عالم الإبداع بعالم الطفولة و عالم الجنون، و هو ربط سعى إليه المحلل النفساني الأول في العصر الحديث " سيجموند فرويد" حين اعتبر المبدعين " مصابين بالعصاب" على حد تعبيره.

و سمة النص الأدبي الأخرى تكمن في صعوبة القبض عليه بوصفه شحنة انفعالية تحكمها قواعد لغوية و معايير أخلاقية و قيم ثقافية و حضارية و فنية و خصائص اجتماعية، كما تحكمه قوانين داخلية متشابكة، دفعت بعض النقاد إلى اعتبار النص الأدبي (علم نسيج العنكبوت). و هذه السمة هي التي تقود إلى تعدد القراءات و إثارة التأمل و من ثم طرح التساؤلات.

و إذا كانت هذه هي أهم سمات النص الأدبي، فليست السمات المهمة أقل عددا أو حضورا فيه، كما أن العبرة ليست في التعرف على سمات النص بقدر ما هي في مساءلة النص للوقوف على طاقاته السميائية و ما تثيره من رغبة تفتحها لذة القراءة و تنهيها متعة التأويل، و عندئذ يغدو النص الأدبي الصامت ناطقا، من حيث أننا نتلقاه و نحاوره فيكشف لنا عن جوانب من كنهه و تظل جوانب أخرى خافية عنا لا تنفتح لنا إلا إذا عاودنا القراءة مرة بعد مرة، تماما كالأرض حين نسألها فإن لم تجبنا حوارا أجابتنا اعتبارا.

قال ابن خفاجة الأندلسي على لسان الجبل:

و كم مربي من مدلج و مــؤوب و قال بظلي من مطي و راكب[9]

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب[10]

و يجيب الشاعر الجبل:

و قلت و قــد نكبت عنه لطية سلام فإنـــا من مقــيم و ذاهــب[11]

و صدق الشاعر القديم حين قال:

و قد تنطق الأشياء و هي صوامت و ما كل نطق المخبرين كلام

الهوامـــــــــــــــــــش

(1) جبران مسعود: معجم الرائد، ج2: ص 1504

(2) القاموس الجديد: طبع مشترك جزائري تونسي باب" نص"

(3) محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي) ط3 1992 لبنان : ص 120

(4) سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ط3 1997 ص 44

(5) عبد القاهــر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا. دار المعرفة بيروت لبنان ،ط1 1978 ص 126

(6) تنظر السيميائيات إلى النص الأدبي على أنه نظام سيميائي مادته الجوهرية في التبليغ هي اللغة، لأنه يمثل سلسلة من الوحدات السيميائية، الأساس فيها هي " العلامة" التي تنتقل من مستوى إلى مستوى حتى تستحيل نصا يدرك على أنه ضمن المنظومة السيميائية علامة واحدة.

(7) مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحمداني و آخرين، منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب. 1987 ص07 .

(8) الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون،دارالجيل.لبنان(د.ت)ج1 ،ص90

(9) المدلج: السائر في الليل أو السائر من أول الليل إلى آخره.

المؤوب: الراجع، العائد، أو الذي يسير جميع النهار.

قال: نام القيلولة.

مطي: جمع، مفرده مطية، من الدواب ما يمتطى.

(10) ريح النوى : ريح الفراق.

(11) نكبت عنه: ملت عنه و انصرفت.الطية: الحاجة و القصد و وجهة المسافر، و هنا بمعنى السفر. و "من" في " من يقيم" زائدة أو بيانية: أي فإنا من مقيم و هو أنت، و ذاهب و هو " نحن".